الحصار

ثلاث قصص عن ثورة العشرين

دار ثقافة الاطفال



السلسلة التاريخية

دار ثقافة الاطفال  السلسلة التاريخية

الحصار

ثلاث قصص عن ثورة العشرين

تأليف : جاسم محمد صالح
رسوم : جاسم الفضل (*)
(*) تصحيح/رسوم : فاضل طعمة

السيف



قرية أم الخير يعرفها الجميع ... فمياهها كثيرة ، وأشجارها مثمرة ... أما أهلها فهم طيبون جدا ويكرمون المسافر والغريب ويعتزون بعاداتهم العربية ، هذه التي توارثوها عن آبائهم وأجدادهم .

الرجل الشجاع القوي الذي يحمل سلاحه بيده دائما ويدافع عن القرية ضدَّ الغرباء المحتلين ، رجل يحبه الجميع ويحترمونه ولا يخالفون له أمراً ، إنه «ضاري» ، الذي جعلوه شيخاً على القرية لصفاته الحميدة ... ومنذ فترة ليست بالقصيرة ، أصبح اسمه (الشيخ) ، في الوقت الذي ازداد حباً لقريته ولأهلها الكرماء الطيبين .



ان ملامحه تدل على الشجاعة والقوة والصبر وكذلك كان طيب القلب مع الجميع ، وخصوصاً مع أطفال قريته الذين يحبونه حباً كبيراً ، ويهرعون إليه كلما وجدوه ليقص عليهم كثيرا من قصص الشجاعة والبطولة والتضحية . أطفال القرية يحبون ذلك كثيراً ، لأنهم يرغبون في أن يكونوا شجعاناً وأبطالاً ومدافعين عن قريتهم ضد اعدائها الطامعين ، لهذا فإنَّ قصص البطولة هذه تستهويهم كثيراً ، فلو أن أحداً ذهب اليهم في أثناء جلوسهم قرب الشيخ ليسمعوا منه الاحاديث فإنه يراهم محيطين به ... وهم صامتون وقد فتحوا عيونهم على أوسع ماتكون ... وبين لحظة واخرى



تتبدل تقاطيع وجوههم وملامحهم تبعاً لما يسمعون ....

الشيخ يحب أن يشرب القهوة العربية اللذيذة وحينما يقصّ على الاطفال قصصه الجميلة كان يتلذذ بشرب تلك القهوة ... فالدلال النحاسية الصفراء موضوعة في الموقد بجانب المضيف ... وألسنة النيران تتصاعد من الخشب المحترق ... ولكن فجأة حدث شيء لم يكن في الحسبان .

جاء أحد رجال القرية الى المضيف ... وأخبر الشيخ بأن أحد الغرباء يقترب من أطراف القرية .

ابتسم الشيخ ابتسامة عريضة ... وفرح من اعماق قلبه ، فكلام هذا الرجل يعني ان هناك ضيفاً قادماً الى القرية .... وهذه مناسبة سعيدة جداً ، وعليه ان يهيىء نفسه لاستقبال الضيف واكرامه على احسن مايكون .

قبل أن يطلب الشيخ من الاطفال ان ينصرفوا الى بيوتهم ، عرف الاطفال ان بقاءهم غير ضروري وعليهم ان يغادروا المكان حالاً ..

شكروا الشيخ وانصرفوا مسرعين الى بيوتهم وهم يرددون بعض حكاياته بصوت عالٍ .

وقف الشيخ في باب المضيف بانتظار مجيء الضيف ، فقد بدا رجلاً غريباً ... وملابسه غريبة وقد ركب حصاناً .

«هذا الرجل ليس غريبا ... ترى من يكون ؟ من ؟» .

قال الشيخ ذلك وأخذ يتساءل مع نفسه ، ومر على الشيخ في تساؤله وقت ، ولم يحسّ إلاّ والرجل الغريب واقف أمامه ... وقد رفض أن يترجل عن حصانه كعادة الضيوف حينما يقتربون من احد البيوت التي سينزلون بها .

- «ماذا يريد هذا الرجل بوقوفه هكذا ؟»

سأل الشيخ نفسه ، لكنّه - وبحكم أخلاقه العربية الحميدة - نسي هذا الموقف ، وتقدم من الغريب ليرحب به بوجه ضاحك بشوش ، لكنه فوجىء حينما رفض الغريب سلامه ولم يردّ عليه ولم ينزل من حصانه ... وعبس وجهه وقال باستعلاء وغضب :-

- انا «لجمن» حاكم هذه المنطقة ... الجديد !

- لجمن .. لجمن .. لجمن .

قال الشيخ ذلك وهو يتفرس في وجه الرجل الغريب مابين مصدق ومكذب ، فالاخبار التي يتناقلها الناس حول هذا الرجل سيئة وأنها تؤكد خبثه ... ولؤمه ... وعداءه للعراقيين وحقده عليهم ...

عاش الشيخ لحظات من الذهول وهو يستعيد مع نفسه الصورة السيئة التي رسمها الناس لهذا الرجل الذي امامه ... لقد صدق الناس فيما يقولون ، وان (لجمن) هذا مثلما وصفوه ..

- نعم ... انا لجمن وعليك أن تعرف هذا قبل ان أآتي .

قال لجمن ذلك مؤكداً كلامه حينما شاهد الشيخ وقد أصابه الذهول والاستغراب حينما اخبره بحقيقته .



ـ نعم ... أعرفك ، فقد تناقل الناس كثيراً من اخبارك ... ولا أحد في هذه القرية لا يعرف بأخبارك ... وعلى اية حال ... تفضل فانت ضيفنا وحق علينا أكرامك .

قال الشيخ ذلك بكل أدب ، لكنَّ لچمن ردَّ على ذلك باستعلاء وتكبر :

ـ جئت لأخبرك بما أريد ، ولم آت لاشرب القهوة .

قال لچمن ذلك وهو يدور بعينيه الحاقدتين في أرجاء القرية بحثاً عن شيء ... كان رجال القرية يتوافدون الى المكان وأيديهم ممسكة بالسلاح ، فملامح هذا الرجل الغريب لا تدل على أنه ضيف ... وأن الشرَّ على وجهه وحينما صاروا قريبين من مكان وقوفه وسمعوا حديثه السيء غضبوا أكثر ... وأكثر وازداد انفعالهم ووضعوا اصابعهم كلّ على زناد بندقيته ... فقد اساء هذا الغريب كثيراً لكنَّ الشيخ رجل واعٍ ومدرك ... ويعرف مايدور في ذهن رجاله ، لذا أشار اليهم بالهدوء ، لأنَّ هذا الرجل ـ ومهما كان قد اساء ـ هو غريب عن القرية وضيف عليها ولا يجوز الاعتداء عليه بأي حال من الاحوال ، وبكل هدوء ردَّ عليه الشيخ قائلاً :

ـ قل لنا ماتريد ، فنحن نسمعك ؟

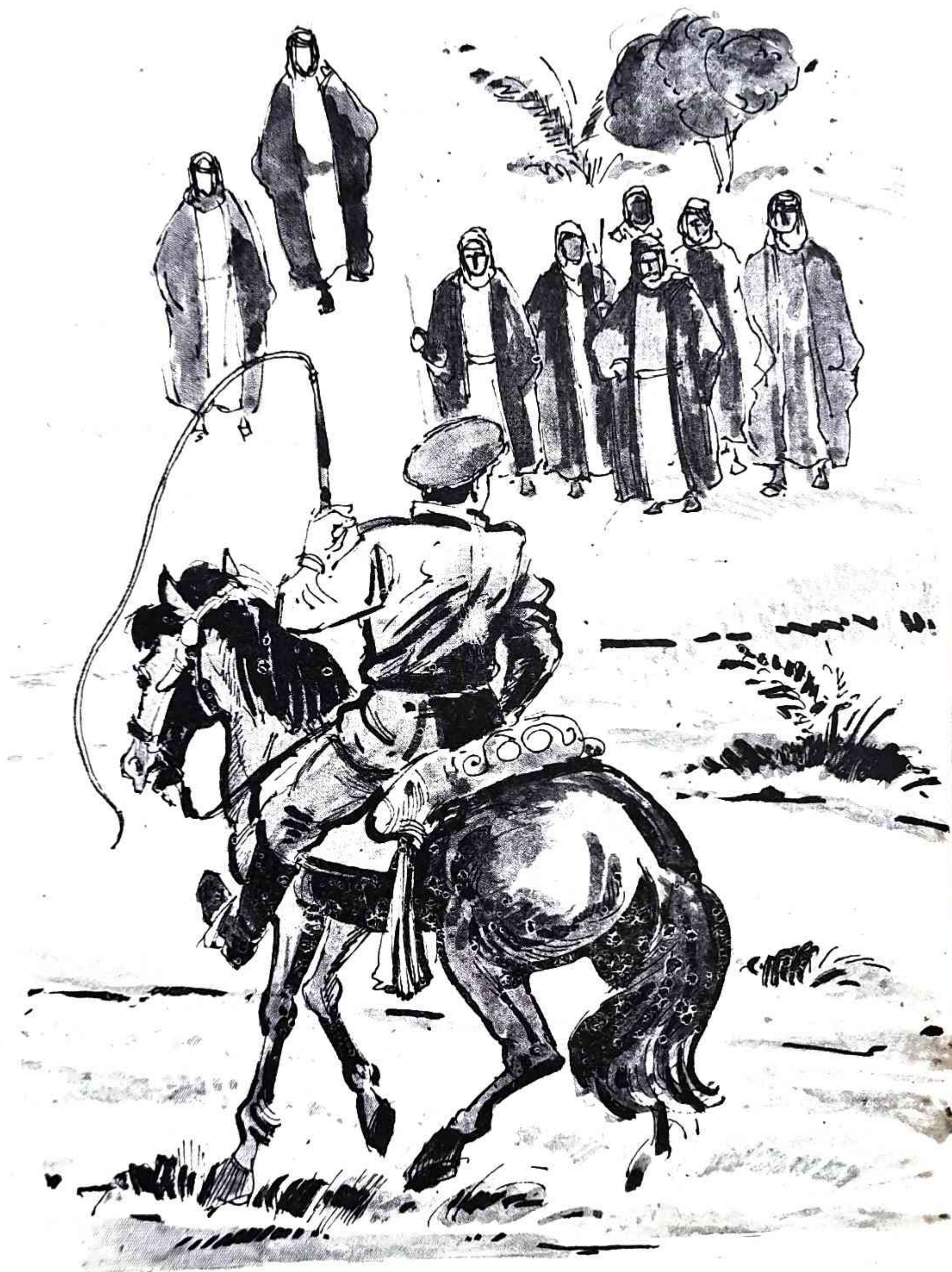
حينما سمع لچمن ذلك ازداد استعلاء .. وتكبراً ، فحمل سوطه بيده اليمنى ، وراح يلوح به في الهواء ... كأنه يريد أن يخيف الحاضرين به :

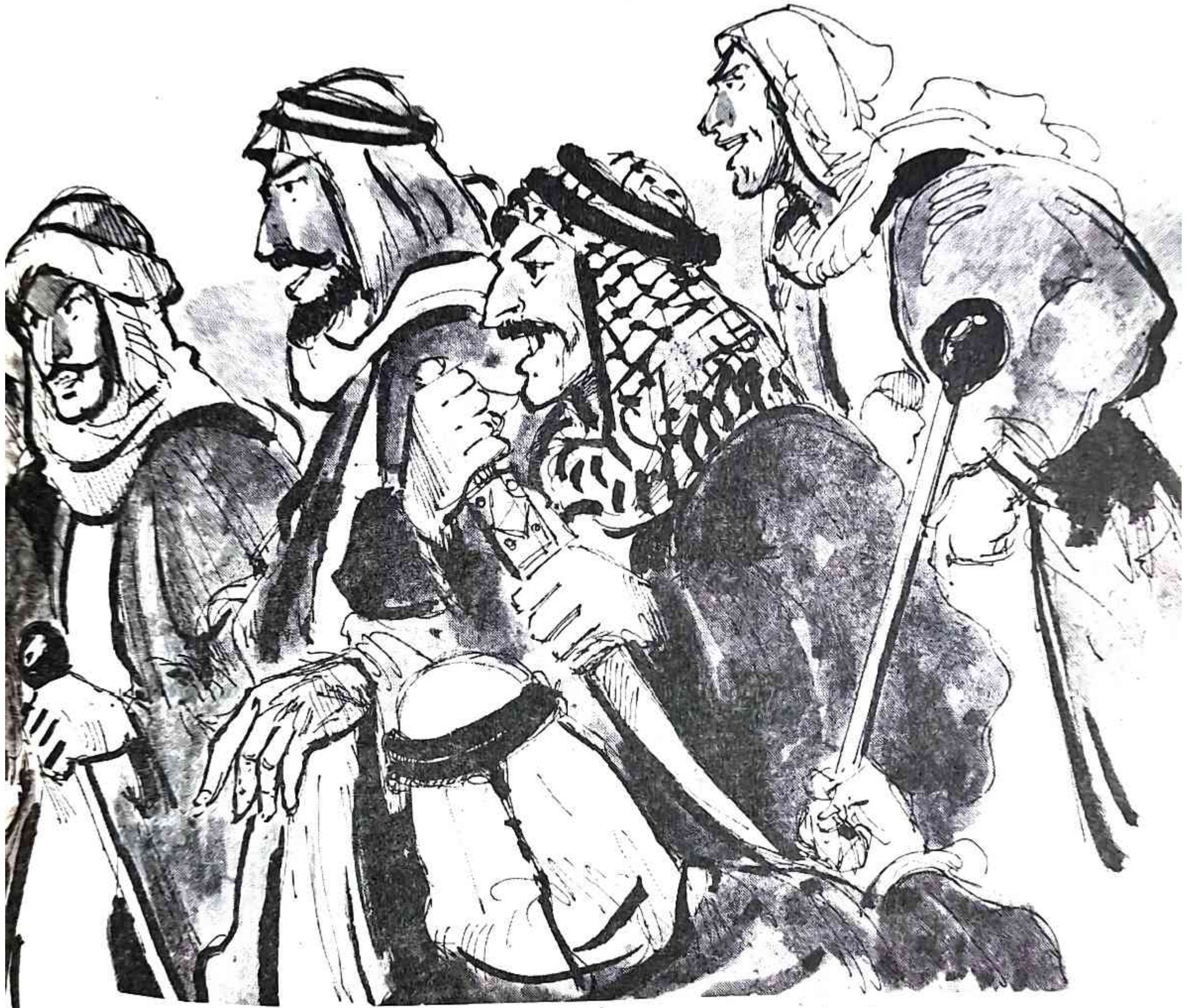
ـ اريد منكم ان تجمعوا لي الف ليرة ذهبيّة ... لنصنع تمثالاً للقائد (مود)* حتى نضعه في بغداد ... وأريد منكم مئة حصان وخمسين بقرة .. وأربعين كيساً من الرز العنبر ... والمهلة صباح الغد ... وسأنتظركم في مخفر (أبي منيصير) ... قال لچمن ذلك وانصرف مسرعا على حصانه ، وبقي الشيخ يفكر في أمر هذا اللعين الذي اسمه لچمن وبما يريد ، فمطالبه لا تطاق ولا يمكن أن تلبى .

ومن بعيد كان الشيخ ورجاله يسمعون تهديدات لچمن ووعيده ... ففي حالة التأخر عن تقديم مايريد في الوقت المحدد سيكون عقاب قرية ام الخير الخراب ... والتهديم ... والدمار ... وسيؤخذ الاطفال رهائن ...

امتعض الشيخ كثيراً من وقاحة لچمن وقلة اخلاقه ، لكنَّ صبره اكثر من غضبه ، فهذا الشيخ الحليم لا ينفعل بسرعة ... لكنَّ احد الرجال الذين لم يتحملوا سماع كلام لچمن اقترب من الشيخ وقال له :

★ مود قائد الجيش الانكليزي المحتل الذي دخل بغداد غازياً واصدر اعلانه المليء بالاكاذيب في انه جاء الى بغداد محرراً لا فاتحاً .





- دعني أتعقبه وأقتله ، فقد اساء الادب كثيرا والقتل قليل بحقه .
استغرب الشيخ من كلام هذا الرجل فاستدار نحوه قائلاً :
- لا تفعل ذلك ، فنحن لا نقتل رجلاً في ارضنا حتى ولو كان عدونا .. وهذه اخلاقنا ونحن لا ننكرها .
قال الشيخ ذلك ، لكنه أمسك بمقبض سيفه :
- سينال هذا الخبيث مايستحق من عقاب ... وسيكون عقابه قاسياً ومؤلماً .
قال الشيخ ذلك لرجاله وطلب منهم أن ينصرفوا ، فتفرق الرجال وعادوا الى بيوتهم ... وكل منهم حكى قصة ماحدث لأطفاله ، ولم يمر وقت طويل ،



حتى عرف كل اطفال القرية قصة لچمن وما يريد ...

في تلك الليلة رفض أطفال قرية أم الخير أن يناموا ، فمسألة التفكير بمطالب لچمن أبعدت النعاس عن عيونهم ، ففي ضوء القمر الساطع بدأوا يخرجون الى أزقة القرية وساحاتها الواسعة وهم يغنون :

(حيَّ الله بلاذ الشام)
(بيها الخوخ والرمان)
(بيها انگيرات العصفور)
(شبّ أو وگع بالتنور) .

وحينما ابتعد الاطفال عن بيوتهم أخذوا يتراكضون الواحد خلف الآخر ... حتى تعب الجميع من الركض ، فقرروا ان يرتاحوا ويلعبوا لعبتهم الحلوة والجميلة ... فاختاروا من بينهم صبياً ألبسوه عباءة وعقالاً وكوفية ، كان أحد الاطفال يحملها معه ... وجلسوا حول الصبي مثلما كانوا يجلسون حول الشيخ ساكتين لا يتكلمون ، وطلبوا منه أن يحدثهم ويقص عليهم مايعرف من حكايات ، وقد خولوه إذا ضحك أحد منهم ، أن يقطع حكايته ويأمر الصبيان الآخرين ، بأن يمسكوه ويرفعوا رجليه الى الاعلى ، في حين يقوم آخرون بضربه على باطن رجله بالعصا ، لهذا فأنَّ الاطفال جميعاً صاروا يكتمون ضحكتهم خوفاً من ان ينالهم العقاب ، ومع هذا فإن الامر كان مضحكاً جداً بالنسبة لهم ، فلم يستطيعوا أنْ يقاوموا رغبتهم بالضحك ... وفي أثناء ماكان الصبي ذو العباءة والعقال والكوفية يقص عليهم كان بعضهم يضحك سراً ... والبعض الآخر يضحك علناً فيستحق العقاب ... وكان الاطفال يضحكون ، كلما عوقب أحدهم ، لكنهم مع هذا كانوا يفكرون بأمر لچمن .

هنا حدَّق أحدهم في الظلام البعيد ثم قال :

- لقد ابصرت شيئاً غريباً يتخفى عند أطراف القرية فأجابه طفل ثانٍ وقد بدأ الخوف يتسرب اليه :

- هيا ... الى بيوتنا ، فالوقت ليل وأخاف ان يكون لچمن هو ذلك الغريب المتخفي .

لكنَّ طفلاً ثالثاً وكان شجاعاً قال :

- لن نخاف لچمن ، فإذا اجتمعنا عليه ، كلنا سنهزمه بعصينا هذه وسيركض أمامنا كالثعلب الخائف .

هنا بدأ الاطفال يتشجعون وابتعد الخوف من قلوبهم وصاروا يتندرون في شكل لچمن ، وقد اختلفوا في وصفه ،

قال أحدهم :

- لچمن لايشبه الثعلب ، فهو طويل وله انف حاد كمنقار الحدأة ، وعينان حمراوان ، وشعر مدبب مثل الشوك والعوسج .

ضحك الاطفال حينما سمعوا ذلك وانطرحوا على قفاهم من شدة الضحك وراحوا يعلقون على ماقاله من اوصاف وبعد ان مضى على بقائهم وقت طويل عادوا الى بيوتهم مسرعين ... فالنعاس يدبّ الى عيونهم شيئاً فشيئاً ...





في تلك الليلة لم ينم الشيخ بل بقي يفكر بأمر لچمن حتى الصباح ... فالمصيبة التي حلّت على قرية ام الخير بمجيء لچمن مصيبة كبيرة ... ولا تنتهي بمطلب ... أو مطلبين ، وأن المطالب ستستمر الى ما لا نهاية .

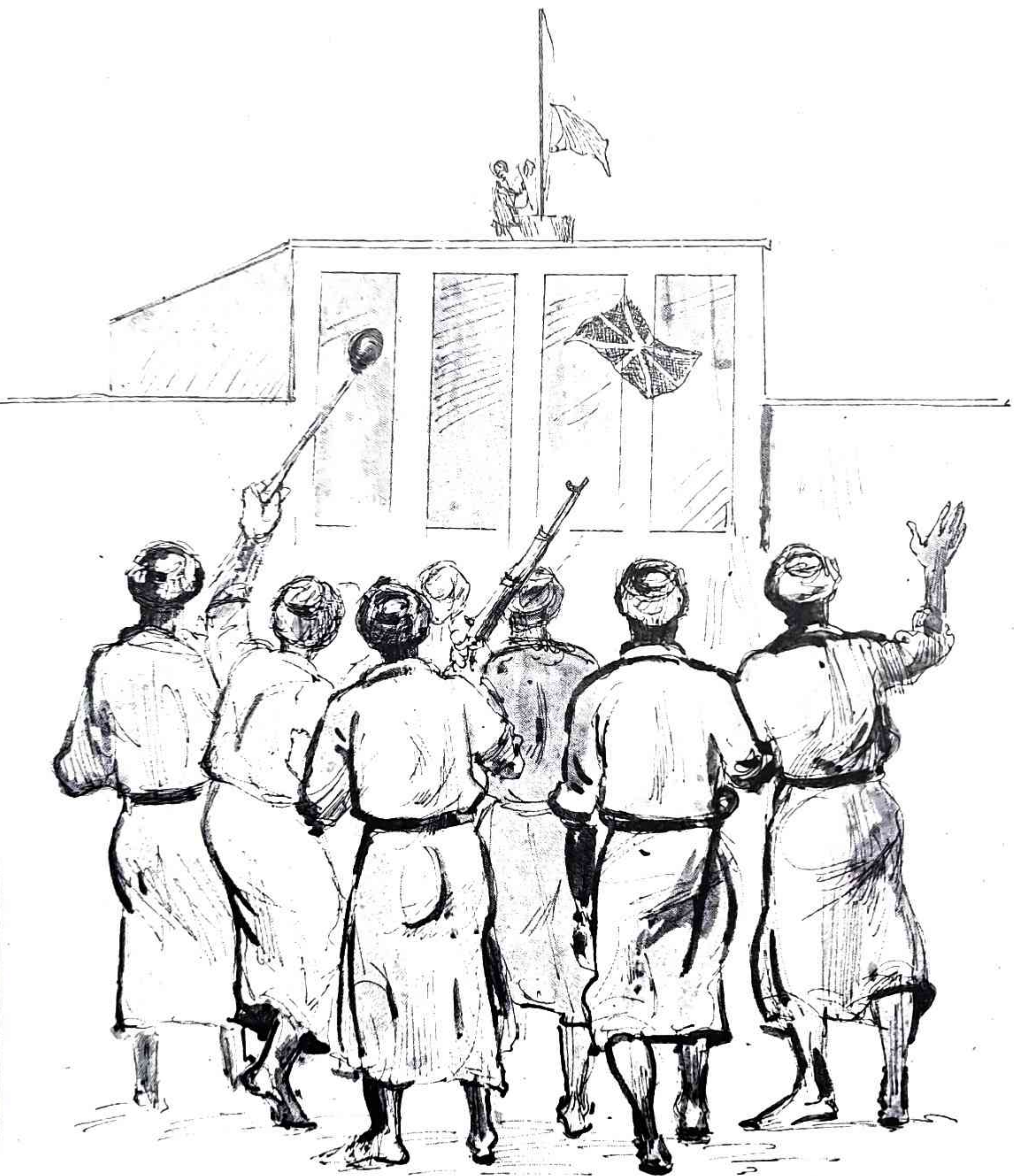
السيف الذي كان بيد الشيخ لم يتركه ... ولا يزال لحد الآن ممسكاً به بقوة اكثر واكثر على الرغم من مضي وقت طويل وها هو الصباح بدأ يؤذن بالاقتراب ... وما هي إلّا لحظات حتى تجمع اكثر رجال القرية وقد حملوا أسلحتهم معهم ، وبعد نقاش طويل ، اتفق الشيخ ورجاله على ان يوقفوا لچمن عند حدّه ... ومهما كلّف الثمن ..



غادر الشيخ ورجاله القرية والشمس لم تشرق بعد ، وغيوم سوداء متناثرة هنا ... وهناك تحجب بعضاً من ضوئها ، وليست هناك حركة غير حركات أرجلهم واصوات تحرك أوراق الاشجار ، بفعل الهواء القويّ .

قرب المخفر ، طلب الشيخ من رجاله أن يبقوا في مكانهم بعيدين عن المخفر .... وسيذهب لوحده لمقابلة لجمن وتصفية الحساب معه ... لكن رجال الشيخ رفضوا ذلك واصروا على ان يرافقوه الى المخفر ... وبين اصرارهم ورفض الشيخ لذلك ، قبل في النهاية أن يرافقه بعض الرجال ، بينما بقي الآخرون في أماكنهم .

دخل الشيخ غرفة لچمن ، بينما بقي الرجال الذين معه خارج الغرفة ،
- اين الألف ليرة ... وبقية الاشياء ؟
- قال لچمن ذلك بغضب وهو يحمل بيده سوطاً يلوح به في الفضاء وكانت هذه هي الطريقة التي يتبعها مع أي انسان يتعامل معه ، فرد عليه الشيخ بتحد وغضب :
- لن نعطيك أيّ شيء .
غضب لچمن غضباً كبيراً حينما سمع ذلك ، فلأول مرة يجرؤ أحد أن يتكلم معه بهذه الطريقة فجن جنونه وبصوت عال :
- بهذا السوط سأجعلك تدفع المال صاغراً ... واسجنك أنت ومن معك ، وأهدم قريتكم وأتلف زرعكم ... ان احترام (مود) واجب على الجميع ...
- لقد حانت نهايتك يا لچمن .
قال الشيخ ذلك وهو يرفع سيفه عالياً ويهوي به على لچمن ، وما هي إلّا لحظات حتى سكت لچمن الى الابد ... وسكنت معه رغباته المجنونة .
عرف الحارس الانكليزي الذي يقف بباب الغرفة ما حدث ... فلم يفعل شيئاً غير أن يترك سلاحه ويولي هارباً لينقذ نفسه .
صعد الشيخ الى سطح المخفر .... وانزل العلم البريطاني ومزقه بيديه ورفع بدلاً عنه علماً عربياً ... وحينما شاهد رجاله ذلك رفعوا بنادقهم الى الاعلى ... وبدأوا يطلقون الرصاص فرحاً ... وعاد الشيخ ورجاله الى قريتهم وهم يرددون اهازيج الانتصار والفرح .
عرفت القرية من بعيد أن الشيخ ورجاله انتصروا على الظالم فخرجوا الى مشارف القرية ليستقبلوا الرجال المنتصرين وقد تحول الحزن في وجوههم الى فرحة كبيرة وأخذ الاطفال يغنون وهم يرددون أمام الرجال :
«هز لندن ضاري وبچاها» .
(حدث ذلك سنة ١٩٢٠) .





أغلق النجار حميد رشيد الاخرس دكانه قبل أن يحلّ الظلام ، وعاد الى بيته مسرعاً فأزقة محلّة الفضل الضيقة تزيد من تعاسة المدينة التي خيّم الظلام عليها ، ووجوه الجنود المحتلين تزيد غضبه ، فهم يوجهون بنادقهم نحو المارّين وأصابعهم على الزناد .... ومع كلّ هذا فهم يتهكمون على الناس بلغة عربية ركيكة .

حوّل الانكليز إنتفاضة الشعب العراقي على التسلط العثماني لصالحهم .. وحينما ملأوا بجنودهم شوارع بغداد ، وراحوا يفعلون مثلما



فعل العثمانيون بالناس .

هزّ أننجار الاخرس رأسه ، صحيح انه لا يستطيع الكلام ... إلّا انه كان يريد أن يقول :

ـ لن نستغفل هذه المرة ، وسيدفع الانكليز الثمن غالياً .

ثم ضرب الارض برجله بقوة ، وراح يتمتم بكلمات يريد أن يقول بها

ـ الويل لمن يسرق الحرية من الناس ، ويطفيء المصابيح في الشوارع ويسرق البسمة من وجوه الاطفال .

تجمع الناس ذات يوم في جامع الحيدرخانة ، وكان النجار الاخرس قد سبق الجميع في الحضور ... فهو منذ طفولته أحبّ احتفالات المولد النبوي ففيها كثير من الامور التي تستهويه وتعجبه .

صعد أحد الناس على منبر الجامع ، وبكل حماسة راح يلقي في الناس قصيدة شعرية تلهب حماس الجماهير .

صفق الحاضرون له تأييداً ، فقد دعا في قصيدته الى طرد الانكليز واستقلال العراق ... إنتبه النجار الاخرس اليه وهو يستمع بفرح الى ابياته ، فصفق مع المصفقين ، وقبل ان ينزل الشاعر من مكانه أسرع إليه متخطياً جموع الحاضرين وقبله قبلتين ... واحدة على خده الايمن .. والثانية على الايسر ، وراح يتمتم علناً بكلمات غير معروفة كأنه يريد ان يقول بها :

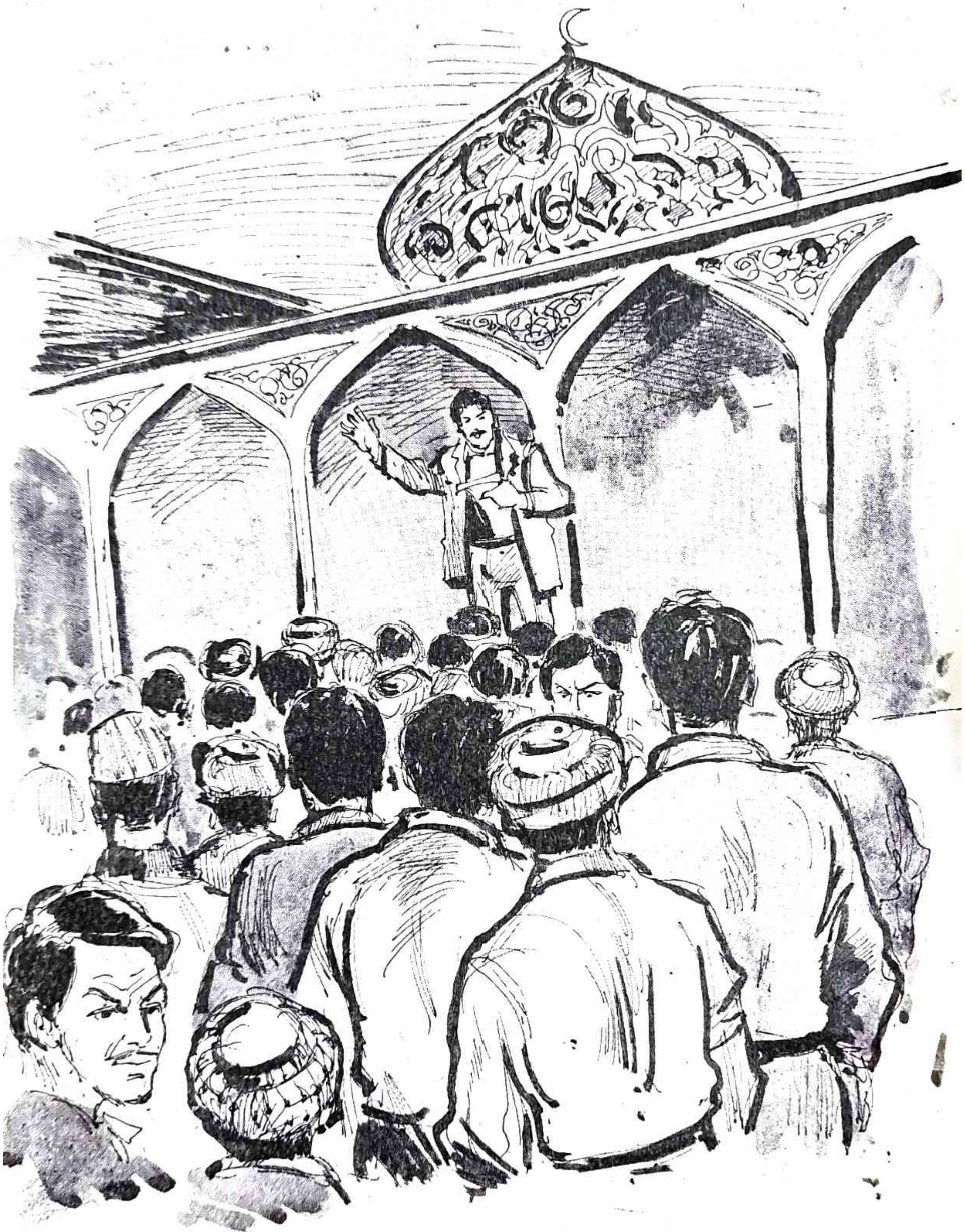
- هذا هو العراقي فلنكن كلنا مثله ، ونحقق ما نريد .

عرف الناس ماذا يريد النجار الاخرس ، فأضطرب المكان وارتفعت صيحات الناس مطالبة بالحرية ... وبالاستقلال وبجلاء الانكليز عن ارض الوطن

جّن جنوب الانكليز حينما وصلت اليهم أخبار جامع الحيدرخانة وما جرىٰ فيه فأرسلوا جنودهم على الفور ليقضوا على الشاعر ويسجنوه ومن ثمّ ينفوه إلى مكان بعيد عن ارض الوطن .

عدَّ اهالي بغداد عمل الانكليز هذا تحدياً لهم ، وامتهاناً لكرامتهم وحقوقهم ، فتنادوا الى حضور اجتماع جماهيري في الجامع نفسه ، بعد أن أغلقوا حوانيتهم ومتاجرهم كلها .

إزداد غضب الناس شيئاً ... فشيئاً ،وهم يتجمعون في جامع الحيدرخانة لانتخاب ممثليهم ، الذين سيفاوضون الانكليز في كثير من المسائل ، ومنها حرية الناس في التعبير والتجمع ، لكنَّ المحتلين لم يرضوا أن يحدث مثل هذا التجمع ، وخافوا من تحوله الى ثورة عارمة ضدّهم ، فأرسلوا على الفور قواتهم محمولة في سيارتين مصفحتين ، اخترقتا شارع الرشيد الذي امتلأ بالآلاف من المواطنين المتجمهرين ... هنا وهناك ، لكن أهالي بغداد بقوا في مكانهم لا يتراجعون ، ولم يخيفهم الرصاص الذي انهمر عليهم بدون رحمة من بنادق المحتلين ، لهذا ازداد جنون الجنود الانكليز ، وهم يرون صمود الناس بوجههم ، رغم الرصاص الكثير الذي يطلقونه عليهم والقسوة التي يعاملونهم بها .





اشتعلت ثورة الغضب في نفس النجار حميد رشيد الاخرس ، وترك مكانه عند بوابة الجامع وأمسك فأس النجارة بيده بقوةٍ ... فالانكليز المحتلون لا يعرفون الرحمة ويجب ان يوقفهم عند حدهم .

قفز من مكانه اليهم ، ووقف وجهاً لوجه أمام مصفحتهم ... وبفأسه فقط راح يقاتل عشرات الجنود المسلحين بالاسلحة ... وظلّ يقاتل ويقاتل حتى سقط شهيداً بنيرانهم ... وسحقته عجلاتهم .



عرف الجنود الانكليز قوة الفأس التي شجَّت رؤوسهم ، فنزعوا خوذهم الحديديَّة وراحوا يتحسسون جراحهم التي سالت منها الدماء .

صار ذلك الحدث عندهم درساً بليغاً وتجربة قاسية لا ينسوها ابداً .

شيّع سكان بغداد كلُّهم «شهيد الوطن الأول» وكان هناك مشاركون من كل مدينة عراقية ، فهذا الرجل الذي يشيّعونه أول عراقي سقط شهيداً بنيران المحتلين الانكليز ... وعند قبره أقسم المشيعون جميعاً على الاخذ بثأره ... وعلى مواصلة الجهاد من أجل طرد المحتلين .

الحصار



رفع الاطفال ايديهم الى السماء ، ثم صرخوا قائلين :

- الطائرات الانكليزية ... الطائرات الانكليزية .

ولما كان صوت الطائرات قوياً ومفزعاً فقد خافوا من ذلك فتركوا اماكن لعبهم المخططة بالحصى وبالطباشير ووضعوا ايديهم في آذانهم وراحوا يتراكضون الى بيوتهم عائدين .

قسم منهم نسي نعليه وانطلق حافياً ، وقسم آخر نسي منديله مع بعض العابه الاخرى ، ومروا في السوق الكبير وقد تصوروا بانه سينقذهم ، ويدخل الهدوء الى نفوسهم ، خصوصاً وانه ملىء بالناس وبالبضائع



وبأشياء جميلة اخرى .

مروا قرب الدكاكين يتراكضون ، لكنهم حينما وصلوا الى دكان الحاج «نجم البقال» توقفوا ... والدهشة مرتسمة على وجوههم ، فنجم البقال واقف أمامهم فاتحاً ذراعيه لهم ووجهه الضاحك يقول لهم اكثر من شيء .... فهو صديقهم ويحبهم مثلما يحبونه .

اقتربوا من دكانه حتى ملأوا الفسحة التي امامه ، وراحوا يتابعون نجم البقال وماذا يفعل ؟

كان «نجم البقال» سعيداً جداً وهو يوزع على الاطفال : التمر واللبن والجوز والحلاوة ، فتلاقفته أيدي الإطفال بكل فرح وسرور ، وصار الجميع يأكلون وهم يضحكون ويغنّون ويصفقون .

الاطفال الذين كانوا عند دكان «نجم البقال» يعرفون أن طائرات الانكليز مخيفة ومرعبة ، لكن الاطفال لا يعرفون الاشياء الاخرىٰ فسأل احدهم نجم البقال قائلاً :

- لماذا يفعلون بنا هكذا ؟ ونحن لم نؤذهم ؟ لم نفعل لهم شيئاً ؟ وما ان اتمّ الطفل كلامه حتى تناهت الى الاسماع اصوات انفجارات قوية جعلت السوق يهتز ... ويهتز ، فاقترب الاطفال من نجم البقّال اكثر ... وأكثر وقد احاطهم بذراعيه مثلما يفعل الاب بابنائه ثم قصّ عليهم الحكاية من اولها ... الى اخرها فالاطفال يريدون ان يعرفوا كل شيء ... وخصوصاً قصة هؤلاء المحتلين .

ضحك الاطفال كثيرا عندما عرفوا السبب ، فقد ذهب الخوف منهم وعاد الفرح الى وجوههم من جديد ..

فهم لا يمكن أن يخافوا من أناس غرباء يريدون ان يسرقوا خيرات بلادهم ويستولوا على أرضه بالقوة .

- لن نخافهم بعد الآن ، ولا يمكن ان نهرب منهم ابداً .

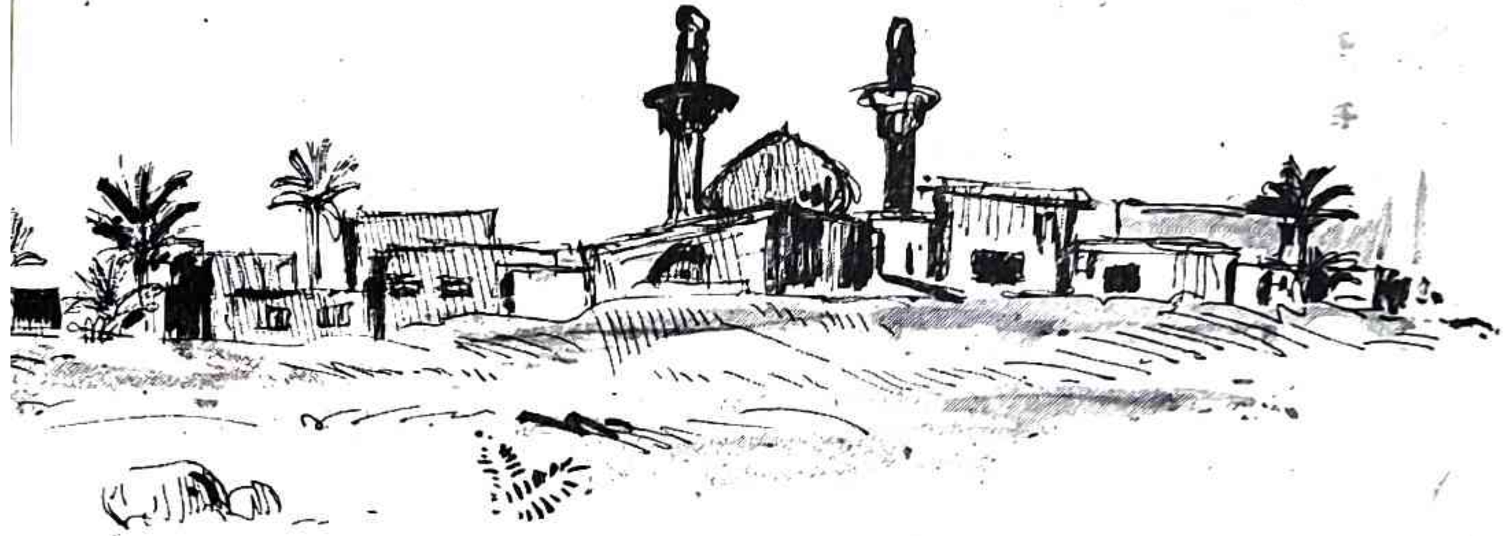
قال الاطفال ذلك بصوتٍ واحدٍ ، وأخذوا يصفقون ويغنون اغنيات شعبية جميلة ... وكان «نجم البقال» يشاركهم فرحهم وغناءهم ويصفق مثلما يصفقون .

حينما عاد الاطفال الى بيوتهم كانوا هادئين جداً ورؤوسهم مرفوعة الى الاعلى ، ينظرون الى الطائرات وهم يتمنون ان تكون لهم عضلات قوية جداً حتى يرموها بما في ايديهم من حصىً ... وقد حاول بعضهم ان يفعل ذلك .. لكن الطائرات كانت بعيدة جداً وعالية ... وتخاف ان تقترب من الناس ..

كل الناس في «مدينة النجف» يعرفون «نجم البقال» ويعرفون انه رجل طيب وكريم ويحب الناس كلهم ولا سيما الاطفال ... ويعرفون ايضاً انه من اكثر الناس عداءاً للمستعمرين الانكليز وكرهاً لهم ، فنجم البقال محق في ذلك ، فلا يمكن لأيّ انسان مخلص لوطنه ، ومحبّ لشعبه ان يرضى بوجود المستعمرين في وطنه .

اذاً ماذا كان يفعل ؟





سؤال ربما يقوله احدكم ... والجواب عليه سهل وبسيط فنجم البقال لم يضيّع دقيقة واحدة من دون ان يجمع همم الناس ويقوّي عزائمهم... فالانتصار على المستعمرين ليس سهلاً ... لكنّه ليس مستحيلاً .

بالقوة .... وبالتعاون ... وبالتضحية يمكن ان نحقق الانتصار كان نجم البقال يقول ذلك لكل الناس الذين يلتقي بهم ، بعد أن جعل من نفسه مثالاً لذلك ، فقد باع كل مايملك واشترىٰ بالاموال اسلحة وعتاداً بكميات كبيرة ، فقتال الانكليز قريب جداً .



الناس في كل مكان حينما ياتي المساء يتركون اعمالهم ويتوجهون الى بيوتهم ليرتاحوا ... لكن «نجم البقال» لم يكن يفعل ذلك فحينما ياتي المساء ، يغلق دكانه ويتوجه مسرعاً الى خارج المدينة ... بعد ان يمر بطرقها الملتوية وبيوتها المتلاصقة ، ويجتاز سور المدينة بصمت وحذر ، ويجلس في مكان يعرفه جيداً ، ويظل يحدّق في الظلام المحيط به بكل اهتمام .

ـ ماذا يفعل «نجم» في هذا المكان ؟ وترى من ينتظر ؟ وايّ شيء يريد ؟ تساؤلات نقولها كلنا وما سيحدث بعد قليل يوضح لنا الامور التي نجهلها ..

بعد مدة قليلة جاء الى المكان رجال مسلحون ومن دون أن يحدثوا صوتاً ... او يثيروا أيَّ انتباه ... انهم رفاقه الثوار . واحد ... اثنان ... ثلاثة ... سبعون ... مئة ، وربما أكثر بكثير ... ملأوا المكان الواسع وبدأوا صامتين .

- علينا ان نواجه الانكليز بالقوة قال «نجم البقال» ذلك ، ثم سكت بانتظار ان يسمع شيئاً ، رد عليه احد الرجال قائلاً :

- لن نتركهم يحتلّون بلادنا .

ثم امسك بندقيته بقوة وصرخ قائلاً :

- والله لا سقطنّ طائراتهم ببندقيتي هذه .

طلب «نجم البقال» من الرجل ان يخفض صوته ، ففي الليل لا يمكن التحدث بصوت عال ، وخصوصاً اذا كان الحديث في مثل هذه الامور .

- غداً سيكون «عيد راس السنة» وسينشغل الانكليز بهذه المناسبة انها فرصتنا الوحيدة لأن نهاجم مقراتهم ونخلّص المدينة من «مارشال»★ وجنوده ... وسنبتدىء في مهاجمة الخان بعد صلاة الفجر .

سكت «نجم البقال» بعد أن قال ذلك وأخذ الجميع يتناقشون في الموضوع ، وبعد فترة وافقوا على ذلك ... وتبادلوا الآراء في تنفيذ الخطة وحددوا ساعة الهجوم ، ثم تفرقوا عائدين الى بيوتهم الا نجم البقال فقد بقي في مكانه يفكر في الامور .

وقتها تذكر «نجم البقال» أطفال «مدينة النجف» وما يفعلونه في مثل هذه المناسبات حينما يلبسون ملابسهم الجديدة ويحملون الدفوف والطبول ويتجولون في الازقة والحارات وهم يغنون بصوت عذب جميل

-«يامحول القلوب والاحوال .. حول حالنا الى أحسن حال» .

وتذكر ، أيضاً وهو في الظلام الدامس وجوه الاطفال الذين أحبهم ... وكيف كانوا يضحكون ؟ ويغنون ويأكلون التمرَ واللبن والرمان ... وكيف ؟.... وكيف ؟

ثم أضطجع «نجم البقال» على عباءته التي فرشها على الارض الرملية وراح يحدق في السماء ويحسب النجوم واحدة ... واحدة على الرغم من أنها كثيرة ، فما زال لديه متسع من الوقت لتنفيذ المهمة .

★ الحاكم الانكليزي لمنطقة النجف وما يجاورها .

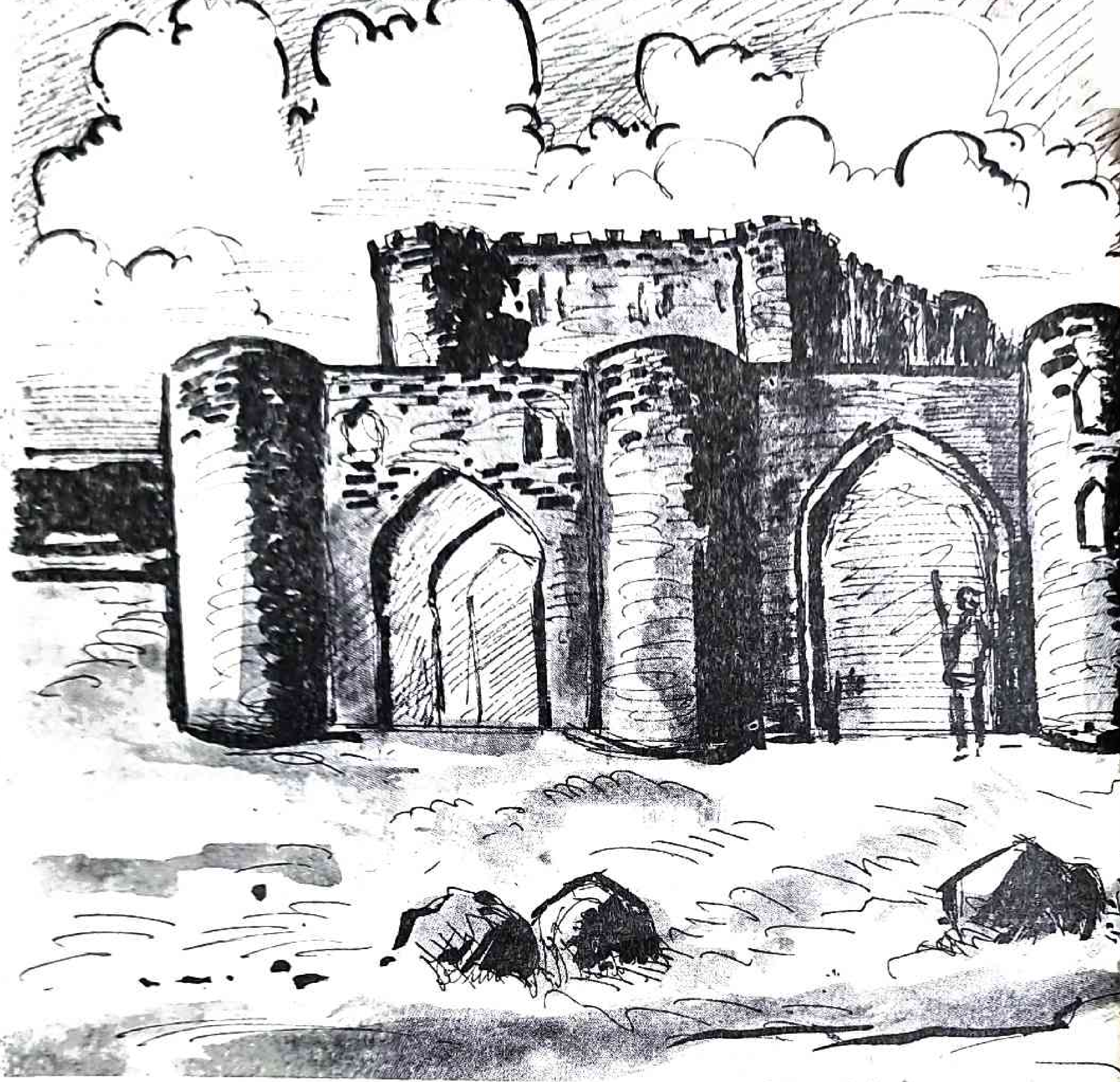




بعد فترة ترك «نجم البقال» مكانه وتوجه الى الخان الذي جعله «مارشال» مقراً له والذي سيهاجمه «نجم البقال والآخرون ، حالما يبزغ صباح هذا اليوم .

مكان الخان ليس بعيداً ، إضافة الى انه مضاء في هذا الليل بأضوية كثيرة جداً في الوقت الذي منع الانكليز فيه أبناء المدينة من ان يوقدوا شمعة في بيوتهم وليس صعباً على نجم أن يصل الى المكان الذي يريد ... فهو ابن المدينة ويعرف كل شيء فيها .

وقف «نجم البقال» قرب الخان وكانت شبابيكه مضاءة وبعد لحظات أخذ



رجاله المسلحون يتوافدون الى المكان من كل جانب ، فلحظة الهجوم قد قربت . وحينما أطفئت الاضواء وخيّم على المكان هدوء ليس له مثيل ... أشار «نجم» لرجاله بأنّ الوقت قد حان وعليهم الآن أن يهاجموا الخان المحاط بالاسلاك الشائكة .

اقترب المهاجمون من الخان وحفروا لهم ممراً تحت الاسلاك ، حتى صاروا قرب بوابته الكبيرة ، وبعد أن قتلوا احد حراسه بذكاء تمكنوا من دخول الخان من دون ان ينتبه اليهم أحد ، فالجنود الانكليز نائمون وغارقون في نومهم .

وقف «نجم البقال» وبعض رجاله المسلحين قرب غرفة «مارشال» وفتحوها بهدوء ، وحينما أصبحوا معه وجهاً لوجه صرخ «مارشال» طالباً النجدة من جنوده ، فلم يجد المهاجمون أمامهم طريقة لاسكات هذا الحاكم الانكليزي الخبيث غير أن يوجهوا اسلحتهم اليه ويسكتوه الى الابد .

انتبه حراس الخان لما يحدث فأصوات الاطلاقات هزتهم جميعاً ، فاخذوا مواقعهم الدفاعية بسرعة وراحوا يوجهون بنادقهم الى المهاجمين كي يحصروهم في مكان واحد ليسهل قتلهم ... أو أسرهم ، لكن «نجم البقال» كان ذكياً ... ذكياً جداً ، فاخذ لنفسه موقعاً حصيناً وطلب من رجاله أنْ ينسحبوا الى خارج الخان بينما يقوم هو بحمايتهم في اثناء الانسحاب .

كانت عملية انسحاب الثوار من الخان جريئة وفيها كثير من المخاطر ، فالجنود الانكليز كثيرون واسلحتهم قوية لكن شجاعة «نجم البقال» وبقية الثوار أفسدت عليهم كل شيء .،

انسحب الثوار من الخان تاركين الانكليز في حالة فزع وخوف لكن «نجم البقال» بقي في مكانه ... ترىٰ ماحل به ؟ وماذا فعل وحده ؟ وكيف خرج ؟

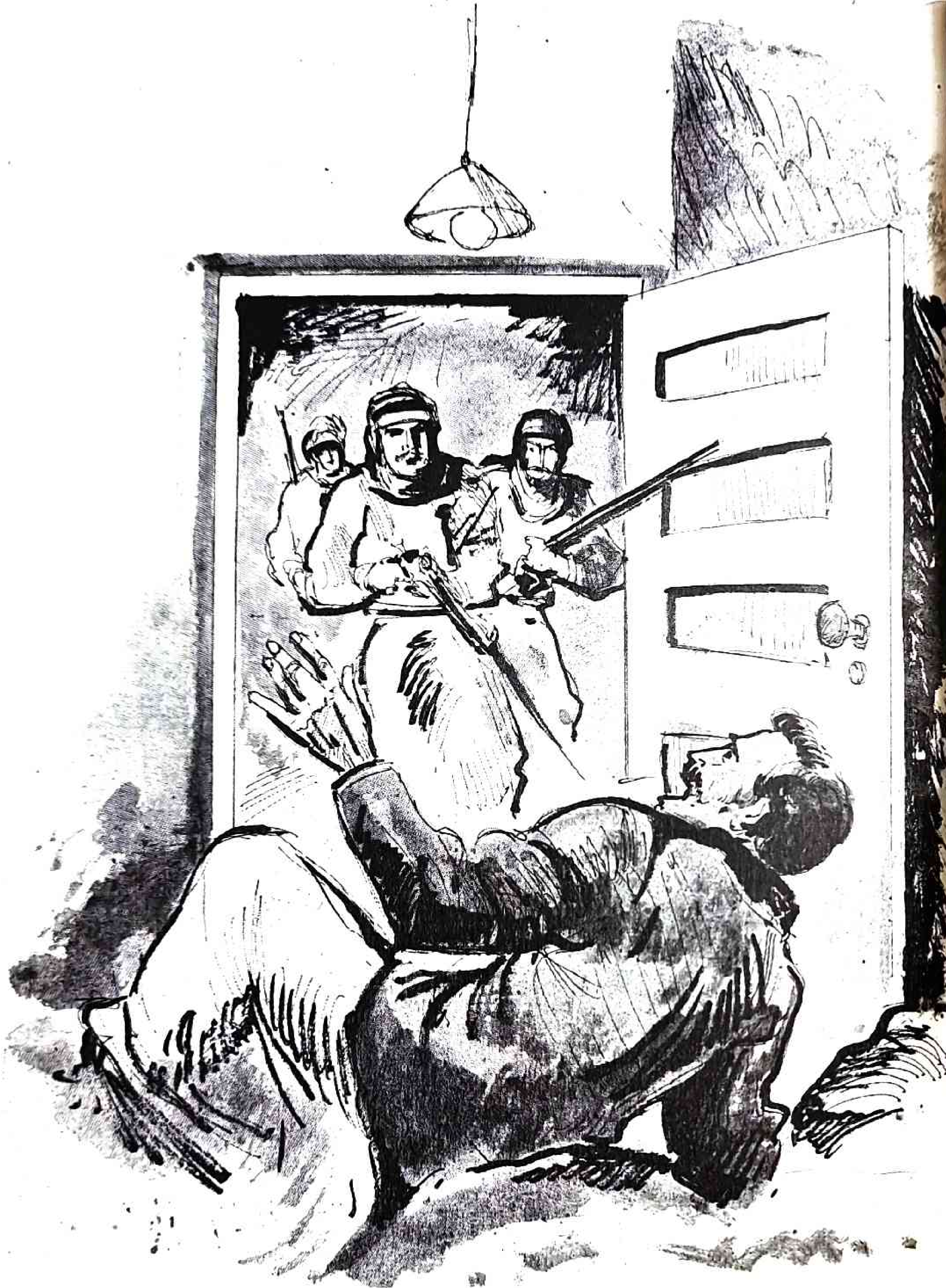
سؤال نقوله والاجابة عنه سهلة ، فما دام «نجم البقال» ذكياً ... وشجاعاً ... ويعرف كثيراً من الامور ، فعملية خروجه من الخان ليست صعبة .

اقترب «نجم البقال» من غرفة «مارشال» ودخلها بهدوء ... ثم نزع ملابسه ولبس بدلاً منها ملابس «مارشال» المعلقة مع خوذته العسكرية .. وخرج من الخان بكل احترام وتقدير ... فقد ظن الجنود الانكليز انه القائد «مارشال» فأدوا له التحية العسكرية .

في البيت نزع نجم البقال ملابس «مارشال» ورماها في بئر قريب ولبس ملابسه وجلس في باحة الدار ليتذكر ... ومن فرحه لم يكن يملك شيئاً يفعله غير أن يضحك ... ويضحك من الاعماق في الوقت الذي كانت فيه اصداء ضحكات كثيرة تتردد في محلات النجف وبيوتها وازقتها .

عرف «نجم» هذه الضحكات ... وعرف أصحابها ... إنها ضحكات رجاله الثوار ... النداف والنجار والقصاب وبائع الخضرة وغيرهم .

وعندما حل صباح ذلك اليوم خرج «نجم البقال» من بيته وتوجه الى مركز المدينة ليلتقي هنالك برجاله ، ومن هنالك راحوا جميعاً يجمعون الناس ويوجهون هممهم للانقضاض على ماتبقى من جنود الاحتلال الانكليزي .





ساعات قليلة مرت على «النجف» ... وصارت في ايدي ابنائها ، فقد هرب الانكليز منها بعدما قتل قائدهم وبداوا يجمعون قواتهم في خارج المدينة للانقضاض على المدينة واحتلالها من جديد .
عجز الانكليز عن اقتحام المدينة ، على الرغم من حصارهم الطويل لها فالمدينة صامدة بصمود أبنائها .
فكّر «نجم البقال» في طريقة يجلب الماء بها الى المدّينة ، فقد قتل العطش الشديد كثيراً من أطفالها ونسائها فتناقش مع بقية الثوار فترة طويلة ، حتى استقر الرأي على ان يجلبوا المياه من خلف المعسكرات الانكليزية ، وهذه مهمة خطيرة جداً لكنها ضرورية في مثل هذه الظروف .
تمكن «نجم البقال» وبقية الرجال من جلب بعض قرب الماء الى المدينة بشجاعة نادرة بعدما اجتازوا معسكرات الانكليز واستحكاماتهم العسكرية ، لكنّ الرصاص الذي اطلقه الجنود الانكليز ، قتل كثيراً من رجاله وثقب القرب التي يحملونها ، فانسكب الماء منها على التراب ... فازدادت المشكلة اكثر ... واكثر .
ذات يوم ارتفعت الحرارة في الجوّ كثيراً وهبت على المدينة ريح صحراوية جافة ومملوءة بالغبار ، فازداد بكاء الاطفال اكثر واكثر ، ووقف «نجم البقال» وبقية الثائرين أمامهم حائرين .... يريدون أن يفعلوا شيئاً لانقاذ هؤلاء الاطفال ، لكن الظروف لا تسمح لهم بذلك .
فوراء الاسلاك الشائكة التي تحيط بالمدينة ، وقف الجنود الانكليز وهم يضحكون على منظر الناس وحالتهم المؤلمة ، و«نجم البقال» يراهم بوضوح ، وهو يتألم في مكانه من شدّة وحشية هؤلاء المحتلين وهمجيتهم .

ماذا يفعل «نجم البقال» ورجاله لهؤلاء الاطفال ؟. والمدينة كلها خالية من قطرة ماء واحدة .... ماذا يفعل ؟ ماذا يفعل ؟ وظل يتساءل مع نفسه ... ورجاله الذين معه يتساءلون ايضاً .... ولكن لا طريقة هناك للحصول على الماء ، فالانكليز يحاصرون المدينة حصاراً شديداً .
رفع نجم البقال يده الى السماء وتمتم مع نفسه بكلمات غير مسموعة وفي اثناء ذلك كانت الدموع الساخنة تنزل من عينيه ، فمنظر الاطفال وهم يتساقطون أمامه مثلما تتساقط الاوراق اليابسة ، منظر لا يحتمل وجعله يفعل ذلك رغم شجاعته وقوة صبره .

حدث شيء لم يكن في الحسبان .... فقد رفع «نجم البقال» وبقية الثوار واطفال المدينة رؤوسهم الى السماء .... وقد تغيّر الجو فجاة ... وصار شيئاً آخر وامتلأت السماء بالغيوم الكثيفة السوداء وأظلّمت الدنيا وهبت ريح رطبة ، تصور الناس ان أسراباً من الجراد غزت المدينة من جهة الصحراء ، وحجبت الشمس بأعدادها الكثيرة عنهم .... لكنّ تصوراتهم هذه تلاشت بسرعة حينما أرعدت السماء اكثر من مرة وبدأت الامطار تتساقط فوق المدينة بغزارة لا مثيل لها ، وفي موسم لا تسقط الامطار فيه ابداً .

الرجال المسنّون في المدينة قالوا إنهم لم يروا في حياتهم مطراً غزيراً كهذا المطر ... وانه سقط في غير موسمه ... يا للعجب !!! يا للعجب !!!

صار سقوط المطر من أجمل اللحظات وأبهجها ... انه العيد بل وأحسن من العيد ألف مرة ومرة ، سكت الاطفال عن الصراخ وانطرحوا على ظهورهم ضاحكين وقد فتحوا افواههم بوجه المطر المتساقط وبعد ان شربوا من مائه كثيراً ، بدأوا يتراكضون الواحد خلف الآخر ، وهم يلعبون ويغنون اغنيات جميلة .

اما الكبار ففي فرح كبير راحوا يهزجون وهم يجمّعون المياه بكل ما يملكون ... فقد امتلأت كل الاواني .... والقدور .... والصواني .... فتمكنوا من جمع مياه كثيرة ، اما المياه الزائدة فقد سالت في أزقة النجف ومحلاتها المختلفة .

وحينما كان الماء يجري كان الاطفال يجرون وراءه وقد انقسموا الى جماعات جماعات وهم يلعبون ... جماعة انشغلت بعمل الدمى الطينية والخرز وجماعة أخرى راحت تغنّي بفرح وسرور أغنيات عن المطر .... (مطر مطر عاصي ... بَلَّل شعر راسي ...)

بعد سقوط المطر ازدادت معنويات الثائرين وصاروا واحداً بعد الآخر يخرجون الى خارج المدينة في أعمال انتحارية ، ويهاجمُون الجنود الانكليز في كلّ مكان .

جُنّ جنون الانكليز لإرتفاع معنويات الثوار ولهجومهم المتوالي على معسكرات الانكليز لذلك أخذوا يشدّدون الحصار أكثر وأكثر حتى تستسلم المدينة لهم .

«نجم البقال» ... وبقية أبناء المدينة رجالاً ... ونساءاً واطفالاً ، استبسلوا في الدفاع عن المدينة ، فالأنكليز يزحفون نحو مدينتهم من كل الجهات ... واسلحتهم القوية بأيديهم .... وطائراتهم تحميهم وتبث الرعب



في كل مكان ، ولم يمر وقت طويل حتى التحم الطرفان في قتال ضار ... وبالسيوف والخناجر والبنادق وحتى بالايدي من شارع الى شارع ومن بيت الى بيت ، كان القتال مستمراً ، لكن المدينة التي امتلأت بالحياة وبالفرح ذات يوم ، تحولت الآن الى شيء آخر ، فبعد اكثر من اربعين يوماً من الحصار توقفت الحياة في المدينة ... فقد دخلها الانكليز مرة أخرى .

بحث الانكليز بجنون عن «نجم البقال» وبقية الثوار ... وبعد بحث دقيق وجدوه في أحد الامكنة جريحاً ، جروحه كانت نازفة وخطرة ، الا انه حاول ان يقاتلهم بيديه لكنه لم يتمكن ، فقد امسكه الانكليز بقوة وشدوه بحبل قوي وراحوا يسحبونه وراءهم على الارض ، وتمكنوا ايضاً من أسر بعض الثوار الآخرين ، فسحبوهم مقيدين والدماء تنزف منهم .

اتجه الانكليز «بنجم البقال» وبقية الثوار الاسرى الى «مدينة الكوفة» لينفذوا فيهم هنالك حكمهم القاسي ويعدموهم ... ومشاهد الحزن والاسى تملأ الدروب ، فالوجوه تبدو حزينة وبائسة .

في «الكوفة» وقف «نجم البقال» وعشرة من الرجال الثائرين ينتظرون اعدامهم على ايدي الانكليز ورؤوسهم شامخة ، فقد رفضوا ان يحنوها للمستعمرين ولو للحظة واحدة ، فالكرامة عندهم أثمن من كل شيء حتى من الحياة نفسها ... فهم يعرفون هذا ويؤمنون به ، وهو الذي جعلهم يقتلون «مارشال» ويحملون السلاح بوجه الانكليز لطردهم وتحرير العراق منهم .

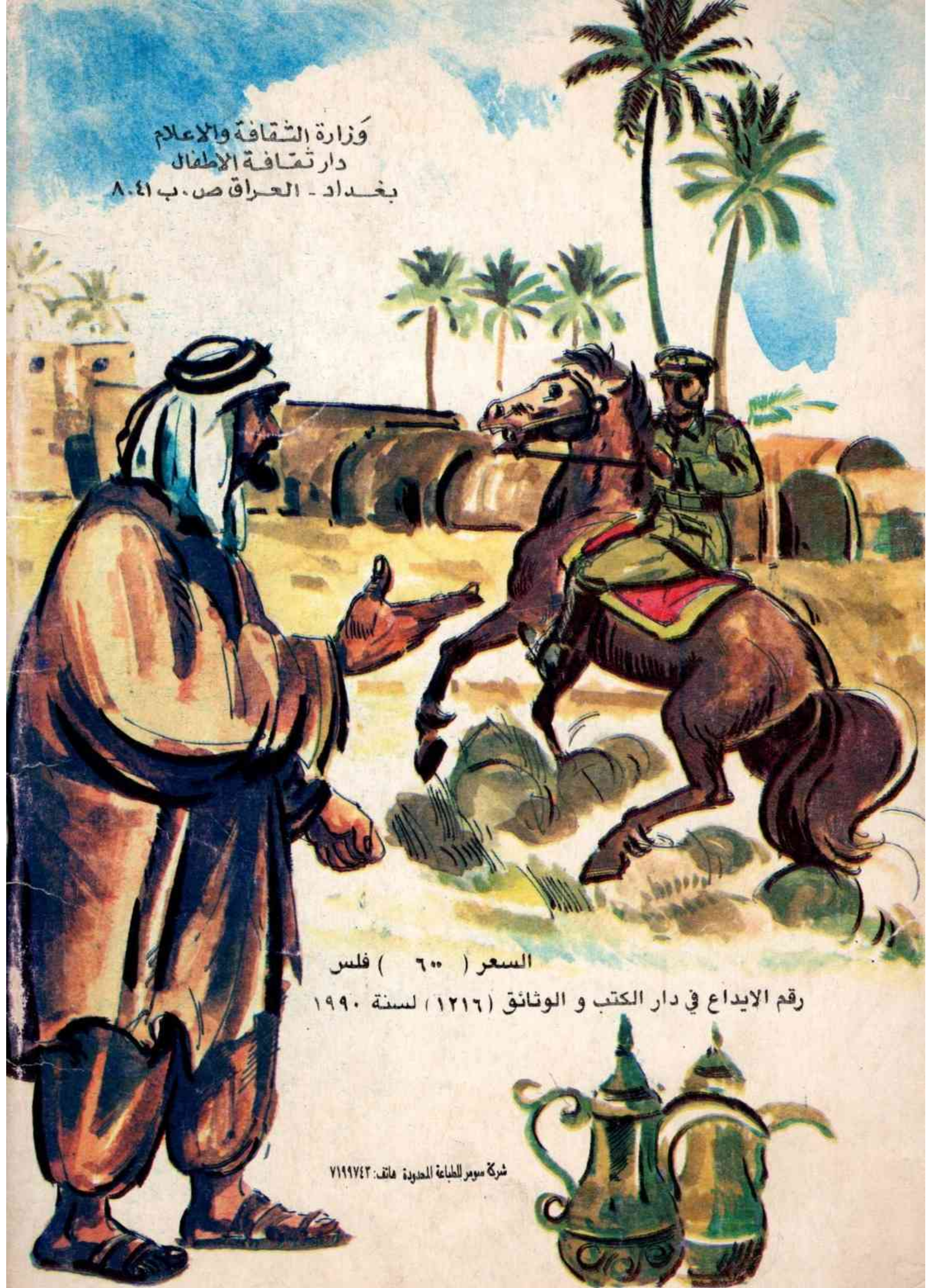
لم يقل «نجم البقال» وبقية الثوار شيئاً حينما ماتوا مصلوبين على اعواد المشانق غير عبارة واحدة :

«سيتحرر العراق من سيطرتكم ايها المحتلون»

ثمَّ سكتوا جميعاً ... ولم يصرخوا ... ولم يتأوّهوا ... ولم يقولوا حرفاً واحداً آخر ... في الوقت الذي كانت فيه أفواج المنفيين من سكان العراق تغادر الوطن ... الى بلادٍ أخرى بعيدة ... ربما «سيلان» او «الهند» أو «هنجام» .

بقيت اجساد الابطال معلقة لفترة طويلة ، فقد أراد الانكليز أن ينتقموا من هؤلاء الابطال ، حتى بعد موتهم ، لكنهم كانوا خاطئين في ذلك فشعبنا لا يقهر ... والكلمات التي رددها نجم البقال وبقية الثوار قبل صلبهم ، ظلت تتردد في أرجاء العراق كله ، تدعو الناس الى الثورة على الانكليز المحتلين والغزاة الطامعين* .

* (حدثت هذه القصة في مدينة النجف سنة ١٩١٨) .



وَزارة الثقافة والاعلام
دار ثقافة الأطفال
بغداد - العراق ص.ب ٨٠٤١

السعر (٦٠٠) فلس
رقم الايداع في دار الكتب و الوثائق (١٢١٦) لسنة ١٩٩٠

شركة سومر للطباعة المحدودة هاتف: ٧١٩٩٧٤٣